الباب الثاني: حول مفهوم حرب اللاعنف

المحتويات

1. ما هي حرب اللاعنف؟

2. حرب اللاعنف.. مفهوم جديد

3. تعريف "حرب اللاعنف".

بعد أن ولجنا معاً عبر بوابة الزمن، وطفنا حول قارات العالم المختلفة، وتعرفنا على بعض التجارب التغييرية التي استخدمت فيها حرب اللاعنف طوال القرن الماضي، حان الوقت للاقتراب من حرب اللاعنف للتعرف عليها مباشرةً، ليس من خلال النماذج التاريخية ولكن من خلال فهم فلسفتها وطريقة عملها.

1. ما هي حرب اللاعنف؟

مصطلحات

استعملت عدة مصطلحات للتعبير عن استخدام أسلوب اللاعنف، مثل "قوة الحقيقة"، و"الاحتجاج السلمي"، و"المقاومة السلمية"، و"المقاومة المدنية السلمية"، و"المقاومة السلبية"، و"المقاومة غير العسكرية"، و"العصيان غير المسلح"، و"العصيان المدني"، و"اللاتعاون"، و"المقاومة اللاعنيفة"، و"اللاعنف". وسنتناول أهم هذه المصطلحات بالتعريف:

أما "**قوة الحقيقة**" فتعني قوة الروح، وقوة المحبة، وكان غاندي يطلق عليها "ساتياغرها"، وهي تستبعد استخدام العنف لأن الإنسان غير قادر على معرفة الحقيقة المطلقة، وبالتالي فهو

لا يستحق العقوبة.[1] فما يبدو صحيحاً لشخص يبدو خطأ لآخر، و أطلق عليها غاندي قوة الحب، حيث استنتج من تجربته أن الإقناع بالحقيقة لا يتم من خلال استخدام العنف مع الخصم، ولكن من خلال فطامه عن الخطأ بالصبر والعطف. والصبر يعني تحمل المعاناة الشخصية، لذلك جاء مذهبه ليعني إظهار الحقيقة، ليس من خلال التسبب في معاناة الخصم، ولكن من خلال إظهار معاناة الذات، فيرى أنك في العمل السياسي عندما ترى قوانين غير عادلة، وتفشل في إحداث التغيير من خلال العرائض وما شابه، إن قررت ألا تصمت على الخطأ فبإمكانك مقاومته بالعنف، أو من خلال إظهار المعاناة.[2] والقوة المسلحة تعني أن تقول لخصمك إذا لم تحقق مطالبنا سنؤلمك، أما قوة المحبة وقوة الروح فتعني أن تقول له إن لم تحقق مطالبنا لن نمنحك أصواتنا، ولن نكون مواطنيك، لن تستطيع أن تحكمنا، ولن نتعامل معك مرة أخرى.[3]

أما "**المقاومة السلبية**" فهي وسيلة لحماية الحقوق من خلال إظهار المعاناة الشخصية والاعتماد على قوة الروح لا قوة الجسد،[4] وقد استعملت في الحس الأرثوذكسي الإنجليزي، وتجسدت في حركة المطالبة بحق المرأة في الاقتراع، ويُنظر إليها كسلاح الضعف. وهي لا

[1] Gandhi, Satyagraha, Civil Disobedience, Passive resistance, Non-co-operation, Young India:23-3-1921.
[2] Gandhi, Satyagraha, Civil Disobedience, Passive resistance, Non-co-operation, Young India:14-1-1920.

[3] M. K. Gand, Non-Violent Resistance (Satyagraha). Publisher: Schocken Books. Place of Publication: New York. Publication Year: 1961. Page Number: 14.

[4] M. K. Gand, Non-Violent Resistance (Satyagraha). Publisher: Schocken Books. Place of Publication: New York. Publication Year: 1961. Page Number: 17.

تتجنب استعمال القوة المادية والعنف إذا اقتضت الضرورة. وبالرغم من ذلك فقد كان يُمَيَّز بينها دائماً وبين المقاومة العسكرية، وكانت تطبيقاتها مقتصرة على شهداء المسيحية.[1]

أما "**العصيان المدني**" فهو انتهاك للقانون اللاأخلاقي، وهو مصطلح يعود بعيداً إلى هنري ديفيد ثوارو، حيث استخدمه للدلالة على أسلوبه الذي اختاره لمقاومة القانون في دولة العبيد.[2]

أما "**اللاتعاون**" فيعني سحب التعاون من الدولة التي هي في وجهة نظر غير المتعاونين فاسدة. ويُستثنى من هذا الأسلوب العصيان المدني الحاد المنتهك للقانون اللاأخلاقي، والذي لا يستطيع كل فرد القيام به وتحمل عواقبه. و"اللاتعاون" أسلوب يمارس بعلانية، وهو مفتوح بطبيعته بحيث يمكن أن يشارك فيه الأطفال، وتمارسه الجماهير بأمان.[3]ومن أشكاله المقاطعة الاقتصادية، والمقاطعة السياسية كمقاطعة الانتخابات أو رفض تقلد المناصب الحكومية، ومقاطعة المنظمات التي تدعمها الحكومة.

أما ظاهرة "**اللاعنف**" فقد تعرض لها علماء الاجتماع والسياسة، وحاولوا إيجاد تعريف لها:

1. حيث يُعرِّف العالم بتريم سوروكن ظاهرة اللاعنف بأنها "عبارة عن سلوك مسالم وهادىء يجنح نحو التفاهم والود والانسجام مع الآخرين، ويتجنب القوة والصدام مع المناوئين والخصوم، حتى ولو كلف ذلك بعض الخسائر المادية والاعتبارية للطرف الذي يتوخى التهدئة والسلام".[4]

---

[1] Gandhi, Satyagraha, Civil Disobedience, Passive resistance, Non-co-operation, Young India:23-3-1921.

[2] نفس المصدر السابق.

[3] نفس المصدر السابق.

[4] Sorokin Pitirim, Sociology of Revolution, (New York: the free press, 1983, 2nd edition), PP.45 – 46.

2. أما الفيلسوف البريطاني برتراند رسل فيُعرِّف اللاعنف بأنه "سلوك عقلاني يهدف إلى تفادي الصراع مع طرف معين أو أطراف محددة، بغية إحلال السلام والوئام والانسجام مع الجهات التي قد تكون سبباً من أسباب التوتر والقلق، وإقناع الآخرين بأن النزاع والحروب يؤديان إلى الكثير من الخسائر المادية والبشرية".[1]

3. أما غاندي فيُعرِّف اللاعنف بأنه "سلوك لا ينطوي على حب من يحبوننا فقط؛ بل يذهب إلى أبعد من ذلك، حيث إن اللاعنف يبدأ من اللحظة التي نشرع فيها بحب من يكرهوننا".[2]

4. ويُعرِّف المفكر الفرنسي جان ماري مولر ظاهرة اللاعنف بأنها "ضرب من ضروب الوعي الاجتماعي والثقافي الذي يجعل الفرد يعترف بحقه وحق الآخرين عليه. ومثل هذا الاعتراف هو الذي يقدح شرارة اللاعنف التي تضع حداً للاستغلال والاحتكار والنزاع والحرب".[3]

5.أما جين شارب فيُعرِّف اللاعنف بأنه "ممارسة حضارية تفرض على الجهة التي تعتمدها في حل مشكلاتها وصراعاتها مع الآخرين انتهاج أساليب إنسانية سلمية، تعتمد على التهدئة والمهادنة والتنازل عن بعض الحقوق في سبيل التوصل إلى حل النزاعات التي تحقق طموحات ومصالح الأطراف المتخاصمة دون اللجوء إلى العنف كخيار لحل المشكلات والأزمات".[4]

وموضوع هذا الكتاب "حرب اللاعنف" يتناول لوناً من الممارسة السياسية، يختلف عن ما تحمله هذه المصطلحات منفردة من معان:

فالمصطلحات التي تضمنت كلمات من قبيل "المحبة" و"الحقيقة" – كقوة المحبة– لا تعبر عن جوهر قوة العمل اللاعنيف، فالعمل اللاعنفي بحسب تعبير جان ماري مولر "ليس

---

[1] Russell B., Peace and Non-Violence in the west London, 1982, 2nd Ed., P. 51.

[2] المهاتما غاندي، كل البشر أخوة، ترجمة د . أنطوان أبو زيدة، الطبعة الأولى، شركة دار الجديد، 1997، ص37.

[3] جان ماري مولر ، استراتيجية العمل اللاعنفي، حركة حقوق الإنسان، بيروت، 1999، ص39.

[4] Gene Sharp, Creative conflict in Politics, (Extending Horizons Books, Porter Sargent Publishers Inc., 1973).

برهان محبة، إنما هو برهان قوة... وهو التفتيش الدائم عن وسائل وتقنيات للنضال تكون أكثر تناغماً مع المحبة وأشد احتراماً للحقيقة"[1]. وقد حلل ماكس فيبر حملة الملح لغاندي، ووجد أن قوة الحقيقة لم تؤثر في قوات القمع.[2]

والمصطلحات التي تضمنت كلمة "المقاومة" – كالمقاومة السلمية– توحي بالطابع الدفاعي ورد العدوان، وهو أمر يختلف مع "حرب اللاعنف" التي نميل إلى أن نعطيها الطابع الإيجابي، فالحق ليس في معركة دفاعية ضد الباطل، بل لديه من الجرأة الهجومية ما تجعله يلاحق الباطل أينما كان.

والمصطلحات التي تناولت كلمة "الاحتجاج" –كالاحتجاج السلمي– ركزت على معنى الاحتجاج، في حين أن جوهر اللاعنف والعصيان هو المقاومة لا الاحتجاج كما سيتبين لاحقاً.[3]

والمصطلحات التي تضمنت كلمات مثل "المدني" و "غير العسكري" – كالعصيان المدني– قد يفهم منها أن الذين يمارسون هذه المقاومة هم المدنيون (غير العسكريين)، أما "حرب اللاعنف" فيشترك فيها – إضافة إلى المدنيين– العسكريون حين يعلنون العصيان أو تبديد السلاح الذي يستخدم في العنف على سبيل المثال.

أما المصطلحات التي استعملت كلمة "غير المسلح" –كالعصيان غير المسلح– فقد أرادت تجريد اللاعنف من كل سلاح عنيف، لكنها لم تثبت له امتلاكه ترسانة أسلحة لاعنيفة.

أما مصطلح "العصيان المدني" فهو يجسد فلسفة أساسية في الممارسة اللاعنيفة، وهي فلسفة العصيان، ويشير إلى إحدى الوسائل المهمة "العصيان المدني"، لكنه لا يستوعب كل الوسائل.

---

[1] جان ماري مولر، معنى اللاعنف، مركز اللاعنف وحقوق الإنسان. جمعية العمل الاجتماعي الثقافي، بيروت، 1995، ط1، ص20

[2] Brain Martin, Technology for Nonviolent Struggle.P.129.

[3] انظر الباب الثالث "حول أساسيات حرب اللاعنف".

ومصطلح "المقاومة السلبية" يحمل دلالة سلبية، وقد تحدث غاندي عن أن أسلوبه يختلف بشكل كبير عن "المقاومة السلبية".[1]

والمصطلحات التي تضمنت كلمة "السلمي" – كالمقاومة السلمية– تضلل القارىء والممارس، فالسلم هو ضد الحرب، واللاعنف – كما سيأتي في التعريف– يشن حرباً على الطغاة، كما أن كلمة "السلمي" توحي بأن المقصود اتباع السبل السلمية الدستورية عبر "النضال الدستوري"، بينما تتميز أسلحة اللاعنف عن الوسائل السلمية الدستورية، فليس كل ما هو غير عنيف يعد من مرتكزات أسلحة اللاعنف كما سيتبين في باب أسلحة حرب اللاعنف.

واستعمال مصطلح "اللاعنف" منفرداً لا يعكس مقصدنا من هذا الكتاب للأسباب التالية:

- المصطلح سلبي يحمل رد فعل تجاه العنف، كأنه يقول "لا للعنف" لكنه لم يخبرنا "نعم لماذا؟"
- عندما نتحدث عن اللاعنف لا نقصد الحديث عن ضد العنف، فليس المراد أن نقول أن هذا الأسلوب لا يلجأ للعنف على الإطلاق. إذ أننا لا نتحدث عن مدرسة اللاعنف المثالية. ويظل هناك جدل مستمر بين نشطاء حرب اللاعنف عن حدود ونوع العنف الممكن استخدامه والمقبول مجتمعياً، خاصة حين نتحدث عن أجواء تغيير ثورية راديكالية في مرحلة حسم مع الديكتاتورية، وليس نشاطاً من أجل التعبير عن وجهة نظر أو رفع مطالب جزئية. وهناك خلاف حول حدود العنف (غير المسلح) مثل استخدام

[1] كان غاندي يسمي أسلوبه "قوة المحبة" أو "قوة الروح" أو "قوة الحقيقة"، وكان يستخدم مصطلح "المقاومة السلبية" مع إشارته إلى تحفظه على دقة المصطلح، لكنه بعد ذلك وجد أن مصطلح "المقاومة السلبية" مضللاً، فعدل عنه وأصبح يستخدم مصطلح "الساتياغراها" و"المقاومة اللاعنيفة"، وأكد أن أسلوبه يختلف تماماً عن "السلبية"، فهو سلاح الأقوياء لا الضعفاء.

القوة البدنية لدفع المعتدين، أو إتلاف قضبان السكك الحديد دون الإضرار بالقطارات والركاب.[1]

- أغلب التعريفات شرحت اللاعنف كظاهرة تتجنب القوة وتتفادى الصدام وتسعى إلى التهدئة؛ بل وربما التنازل عن بعض الحقوق في سبيل التوصل إلى حل للنزاعات دون اللجوء للعنف. في حين أن جوهر اللاعنف هو إعادة النظر لطبيعة القوة السياسية، وزعزعة قبضة الديكتاتورية على السلطة.
- المصطلح غير محفز أو مبشر بإمكان إيجاد حلول للقضايا المصيرية كالاستبداد، التي تعجز فيها الوسائل السلمية. وهو في الغالب مرتبط في الوعي العام بأولئك السذج الذين يظنون أنهم سينهوا الظلم بتقديم الورود لخصومهم دون أن يطلقوا طلقة واحدة.
- المصطلح يوحي بالصورة النمطية لأسلوب غاندي ولا يعكس طفرة اللاعنف، بعد أن أصبحت له دراسات وممارسات ممنهجة، فقد تطورت – ولازالت– فلسفة واستراتيجيات وتكتيكات ووسائل اللاعنف. ولم يعد الحديث عن اللاعنف اليوم يقصد به فقط فلسفة وأسلوب غاندي كممثل رئيس وأب روحي للمنهج في القرن العشرين. فقد صبغ غاندي اللاعنف بصبغته

[1] التخريب الذي يتعلق بحرق المنشآت والمركبات لا يصنف ضمن حرب اللاعنف، ولكن الممارسات موضع الخلاف من أمثلتها ما يقوم به نشطاء السلام الذين يفككون الصواريخ، أو يلقون الدم على الملفات العسكرية في دلالة على مناهضتهم للحروب، أو إتلاف خطوط قضبان السكك الحديد التي تستخدم في نقل مواد نووية مع الإعلان قبل القيام بالفعل حتى لا تتسبب في حوادث كارثية. وهم بعد القيام بنشاطهم يعلنون مسئوليتهم الكاملة عن العمل، ويسلمون أنفسهم إلى الشرطة. ويمكن النظر لمثل هذه الأنشطة كشكل من أشكال العصيان المدني، والتأثير الرئيسي للنشاط رمزي، وليس تدمير الاقتصاد. كما يعتمد استخدام مثل تلك الوسائل على القبول الجماهيري لها، والتعاطف الشعبي معها. وكل حالة تدرس على حدتها، وإلا تحولت إلى أداة تنفير للجماهير، وإدخال القائمين على مشروع التغيير في عزلة تمكن النظام المستبد منهم. كل هذه الأشكال حين تستخدم في مراحل الحسم تهدف إلى حصار العنف لا تغذيته، مثل حماية التظاهرات في بعض البلاد التي يستخدم فيها عنف مفرط بالرصاص الحي والقذائف. الهدف هنا هو حماية المتظاهرين من الانخراط في عنف غير مدروس يأكل الأخضر واليابس، هو رد متوازن يهدف إلى حفظ المسار المسار السلمي في الوقت الذي يسعى الخصم إلى دفعه للإنحراف وجره إلى العنف غير المدروس.

الروحية التطهرية كهندوسي مناهض للعنف، يعتنق اللاعنف كمبدأ، لكن هناك مدرسة واسعة تتبنى اللاعنف كاستراتيجية وتقنية فعالة، وتُطوره في هذا السياق.[1]

أزمة المصطلحات

وتكمن أزمة المصطلحات والتعريفات السابقة في أنها تعكس مفاهيم جزئية، فهي إما أن تعالج بعداً فلسفياً مثل "قوة الحقيقة"، أو بعداً استراتيجياً مثل "المقاومة اللاعنيفة"، أو بعداً تكتيكياً مثل "العصيان المدني". وهي تعريفات في مجملها صحيحة من حيث أنها تسلط الضوء على جزء من فكرة الكفاح اللاعنيف، لكنها منفردة تعجز عن وصف الكفاح اللاعنيف، إذ أنها مصطلحات يضيق وعاؤها عن استيعاب آفاق تطور هذا الأسلوب، فضلاً عن التعبير عنه في صورته الراهنة. فهذه التعريفات وصفت الجزئيات، كمن يرى سيارة فيطلق عليها "الباب" لأن بها أبواباً، أو "العجلات" لأنها تسير على عجلات، أو "عجلة قيادة"، أو "محرك"، فالسيارة ليست واحداً من هذه المكونات منفرداً، ولكنها مجموع كل هذه المكونات عندما ترتب في نسق محدد، لذلك فالمصطلح المعبر عن الكفاح اللاعنيف يجب أن يكون شاملاً لكل مكوناته. ومن ثم لا يمكن التعبير عنه بوضوح من خلال جزئياته، فلا يصح – على سبيل المثال– أن نطلق على الكفاح اللاعنيف "الاحتجاج السلمي". فهو وإن استُخدم فيه أسلوب الاحتجاج الذي هو عبارة عن التعبير عن الرأي المعارض؛ إلا أنه يتجاوز أسوار الاحتجاج إلى ساحة المقاومة التي لا تقتصر على الإعلان عن الموقف؛ وإنما تتصدى للظلم وتحاول إنهاءه.

[1] مر على تجربة غاندي ما يقرب من قرن من الزمان، ولم يعد منهج اللاعنف يعكس فكرة غاندي بشكلها المثالي الحالم، فغاندي كان راهباً هندوسياً سياسياً لاعنفياً، وليس شخصاً سياسياً يتبنى استرتيجية لاعنيفة، فاللاعنفيون هم أولئك الذين يؤمنون باللاعنف كمبدأ وخلق أمثال غاندي، على عكس ثورو الذي كان يرى في اللاعنف استرتيجية فعالة وممكنة، بغض النظر عن إيمانه الشخصي باللاعنف كمبدأ مطلق في الحياة.

إن المصطلح الذي يجب أن يعبر عن هذا النوع من الكفاح يجب أن يستوعب الصورة الكلية له فلسفياً واستراتيجياً وتكتيكياً. ويتسع لآفاق التطورات المستقبلية.

2. حرب اللاعنف.. مفهوم جديد

وبناء على كل ما سبق؛ رأينا في أكاديمية التغيير ضرورة اعتماد مصطلح جديد، نميز فيه بين اللاعنف كأسلوب يستخدم لتحقيق بعض المطالب من خلال وسائل احتجاجية كتعليق الملصقات والتظاهرات، وبين حالات اللاعنف التي تشن الهجوم بضراوة ضد ديكتاتوريات، تتطلب مواجهتها حشداً شعبياً كبيراً، وتستخدم وسائل غير عنيفة أكثر تأثيراً من مجرد المظاهرات، مثل احتلال الميادين والاعتصامات المفتوحة والعصيان المدني وغيرها من الوسائل التي تستخدم بوعي لتغيير موازين القوى.

هذا المصطلح الجديد هو "حرب اللاعنف"[1]، وهو مصطلح مرتبط باستخدام "اللاعنف" في حالات الصراعات الصفرية ضد الديكتاتورية، وهو هنا ليس مصطلحاً يحمل طابعاً بلاغياً أدبياً؛[2] وإنما هو مصطلح مقصود. يعالج إشكاليات المصطلحات السابقة على مستوى الحاضر، كما يبشر بطفرة في المستقبل.

---

[1] الحرب كما عرفها كلاوزنيتز هي "استمرار للإجراءات السياسية مع مزيج من الوسائل الأخرى غير السياسية، مزيج من الوسائل العنيفة". وهي كما ذكر جراهام مود "عمل من أعمال العنف نقصد به إرغام أعدائنا على الخضوع لإرادتنا". وإذا كانت الحرب العسكرية بالأساس سياسة تهدف إلى إرغام طرف على الخضوع للطرف الآخر بوسائل عنيفة، فإن "حرب اللاعنف" يمكن النظر إليها كاستمرار للإجراءات السياسية بهدف إخضاع الخصم من خلال وسائل لاعنيفة.

[2] أشار غاندي من قبل إلى أن اللاعنف حرب، كما استخدم جين شارب مصطلح "حرب اللاعنف" في كتاباته، واستخدم كذلك مصطلح "أسلحة"، وقد جاءت هذه الاستخدامات في سياق أقرب إلى السياق الأدبي المجازي لمنح "اللاعنف" دلالة قوة، غير أننا في الأكاديمية نعمل على عمل مقاربة حقيقية تجعل اللاعنف يقوم على نفس المرتكزات التي تقوم عليها الحرب.

أولاً: مستوى الحاضر

- أنه أوجد صيغة محفزة في حالات الصراع الصفري حيث تُشن الحروب ضد الشعوب. وفي هذه الحالة يصعب تجاوز فكرة وجود الحرب، لكن المطلوب توفير غطاء فلسفي واستراتيجي لها.
- عالج إشكالية الطابع الدفاعي، فالحرب قد تكون هجومية أو دفاعية أو استباقية. وليست كل حرب مرتبطة بالسلاح، فمصطلحات "الحرب الباردة"، و"الحرب النفسية" خير شاهد على استعمال مصطلح "الحرب" في سياقات أخرى غير الاستخدامات العسكرية.
- مصطلح الحرب يستوعب جميع فئات المجتمع، المدنيين منها والعسكريين، إذ لكل منهما دوره في حرب اللاعنف.
- مصطلح "حرب" يعلن بجرأة رفضه خرافة عدم التسلح في الكفاح اللاعنيف، إذ لا يدع النشطاء يواجهون بلا أسلحة، بل يدعو إلى التسلح، ولكنها أسلحة من نوع خاص لا تعتمد على العنف.
- تجنب المصطلح التعبير عن "اللاعنف" بإحدى وسائله كالعصيان المدني. وكلمة "الحرب" تتضمن ترسانة ضخمة من الأسلحة المتنوعة.

- المصطلح لا يعرض اللاعنف كأسلوب للضعفاء أو المهادنين والمستسلمين، ويرفض الدلالات السلبية، وهو لا يكتفي بفكرة اللاعنف المثالية التي تنادي بمخاطبة ضمير المستبدين فقط من خلال إظهار المعاناة لهم، فهو مشبع بالقوة والمواجهة ووسائل الإجبار القادرة على كسر إرادة المستبدين، لا تحريك ضمائرهم فحسب. وهو في ذات الوقت لا يوحي بالتدمير والفتك، "إذ ليست الحرب في مقاصدها سياسة فتك وتدمير، بل سياسة غرضها أن تفرض على الخصم حلاً

لم يقبل به مختاراً. وأن تحمله على تغيير رأيه، وتعديل موقفه، بطريقة مضمونة. وقد يكفي لذلك التلويح باستعمال القوة"[1].

▪ مصطلح الحرب يميز بين العمل التغييري المقصود والمدروس وبين معارك الشوارع "الخناقات"، شتان بين "الحرب" و"الخناقة"، الثانية تعتمد منطق "من يضربك اضربه"، والأولى تعتمد على الخطة واللالتزام بها، الثانية تعتمد منطق "التنفيس عن الغضب"، والأولى تعتمد منطق "إدارة الغضب بفاعلية"، ويندرج في ذلك تكتيكات الهجوم والدفاع وضبط النفس والانسحاب لمواقع جديدة .. الخ.

"حرب اللاعنف" لا تقوم على وسائل لاعنفية مثالية يتم تعريفها باعتبارها ضداً للعنف. إذ لجأت مدرسة اللاعنف على مدار عقود إلى إثبات أنها ضد للعنف، لكنها تطورت مع الممارسة لتؤكد أنها أيضاً ضد للوسائل السلمية الدستورية. فوسائلها ليست عنيفة مثل الحروب العسكرية، كما أنها ليست ذات الوسائل السلمية الباردة. فالمصطلح يحمل دلالة ضد المتعارف عليه من أن اللاعنف هو ذاته الوسائل السلمية الدستورية. إذ اللاعنف في الأساس حرب فوق دستورية. وبذلك يواجه المصطلح أولئك الذين لا يرون حلاً سوى العنف، وأولئك الذين لا يرون حلاً سوى الحل السلمي الدستوري للتعامل مع الأنظمة الديكتاتورية.

ثانياً: المستوى المستقبلي

• تستمد "حرب اللاعنف" بنيتها من بنية الحروب العسكرية من حيث ارتكازها على بنية علمية تطور الدراسات والأبحاث، وأكاديميات متخصصة للتدريب على كل سلاح (البحرية – الجوية – الخ)، وتكنولوجية تستوعبها مصانع تطور الأسلحة، وعلى نفس هذا النمط تتشكل بنية حرب اللاعنف التي نبشر بها، من حيث وفرة مراكز الدراسات والأبحاث المعنية بتطويرها، ووفرة

[1] العقيد محمد صفا، الحرب، دارالنفائس، بيروت.

الأكاديميات المتخصصة في تخريج شباب مدرب على مختلف الاستراتيجيات والتكتيكات والتقنيات الجديدة، ومصانع تهتم بتطوير الأسلحة اللاعنيفة.

- عالج المصطلح إشكالية الجمود وعدم التعرض لطفرة اللاعنف، إذ الحرب تقوم على علم وتكنولوجيا تطور الأسلحة وممارسة تراكم الخبرة، وأغلب الباحثين ونشطاء اللاعنف يركزون على أهم العوامل التي تجعل اللاعنف ناجحاً، كالعامل النفسي، والاجتماعي، والتنظيمي، والاستراتيجي، وقلما اعتبرت التكنولوجيا عاملاً مؤثراً، أما في الحرب فعلى العكس من ذلك، فالعوامل التكنولوجية لها تأثيرها الكبير والمهم،[1] ويتميز اللاعنف في ثوبه الجديد المستقبلي، بأنه يأخذ هذه الروح الحربية، إذ تؤسس له قواعد علمية متينة (كالحروب العسكرية)، وتطور أسلحته والتكنولوجيا الخاصة به (لتتوافق مع تحديات ومتطلبات الصراع)، وتتجدد ممارساته التطبيقية. ولأن دور التكنولوجيا في الحروب كان مضاعفة قدرات الإنسان، فإن دور التكنولوجيا كذلك في حرب اللاعنف هو مضاعفة القدرات، وإحداث ثورة في نمط الفعل.
- الكثير من التطورات التكنولوجية التي نراها اليوم جاءت في إطار تطوير تكنولوجيا الحروب، مثل تكنولوجيا الفضاء والاتصالات والذرة، والإنفاق الأكبر من ميزانية الأبحاث العسكرية في أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية تركزت على الإلكترونيات، ثم استخدمت بعد ذلك في الاستخدامات المدنية.[2] وكما يساهم العلم والتكنولوجيا في تطوير أدوات الحرب العسكرية، فبإمكانهما أن يساهما في تطوير أدوات اللاعنف. وإذا تم وضع ذلك ضمن قائمة الأولويات، فستحدث تطويرات جوهرية في العلوم والتكنولوجيا، فالتغييرات في التكنولوجيا تعتبر مقدمة لمشهد التغييرات الاجتماعية،[3] وسيكون ذلك فاتحة خير على البشرية.[4]إن حرب اللاعنف لا تترك العلم

[1] Brain Martin, Technology for Nonviolent Struggle.P.86
[2] Brain Martin, Technology for Nonviolent Struggle.P.28.
[3] Brain Martin, Technology for Nonviolent Struggle.P.41.
[4] Brain Martin, Technology for Nonviolent Struggle.P.6.

والتكنولوجيا حكراً على الحكومات، والطفرة القادمة هي تحويل المقاومة اللاعنيفة إلى حرب لاعنيفة من خلال امتلاك تكنولوجيا خاصة تتفوق على تلك التي تمتلكها الحكومات، وبذلك فإن الطور الجديد من اللاعنف يعني الدخول في سباق التسلح. لكنه تسلح غير عنيف، يحترم آدمية الإنسان وحرمة دمه.

- "حرب اللاعنف" في سباق مع الحرب العسكرية من حيث استقطاب النابهين، فقليل من العلماء والمهندسين مهتمين بعمل الدراسات والبحوث عن اللاعنف، وأغلب النابهين تستقطبهم المؤسسات العسكرية بشكل مباشر أو غير مباشر.

وأخيراً إن اختيارنا لمصطلح "حرب اللاعنف" أبعد من أن يكون مجرد توصيف لكفاح يندد بالعنف، إنه يعني صناعة من طراز خاص تنافس صناعة الحرب العسكرية، وهي صناعة تفي باحتياجات شن الحرب على الطغاة وتحرير إرادة الشعوب، هذه الصناعة تشمل معمل الباحث، ومختبر مطور التقنية، ومصنع إنتاج الأدوات الفعالة، وأكاديمية لتخريج فرقاً مدربة استراتيجياً وتكتيكياً. وأذرع اقتصادية عملاقة قادرة على منافسة الأذرع التي تدعم أبحاث الدمار، إنه يعني أن يتحول اللاعنف من أعمال الهواة إلى برامج المحترفين. أن يتحول إلى صناعة كاملة، وهذه الصورة وإن لم تتواجد اليوم في العالم (شرقه وغربه) إلا أنها تتطلب التبشير بها والسعي لجعلها واقعاً، لتتضافر جهود البشرية الرافضة للدمار، من أجل خوض معارك تحقيق السلام.

3. تعريف "حرب اللاعنف"

أما تعريف أكاديمية التغيير لـ "حرب اللاعنف" فهو: "**شن الصراع الحاسم على الخصوم المعاندين، من خلال التحكم المقصود والمخطط في أدوات القوة السياسية لتحطيم إرادة الخصم، باستخدام أسلحة لاعنيفة قوية التأثير**".

وهذا التعريف لحرب اللاعنف يمثل تعريفاً تحليلياً معيارياً، نستطيع من خلاله الحكم على مدى نجاح وفشل التجارب التغييرية المختلفة الماضية والحاضرة والمستقبلية، فهو تعريف عملي أقرب إلى الأداة العملية أكثر منه إلى التعريف الفلسفي.

مفردات التعريف

وسنتناول في هذا الباب شرح هذا التعريف وكيفية استعماله كأداة عملية في إطار الحرب القائمة بين المطالبين بحقوقهم والمغتصبين لها، وسنتعرض له من خلال الفصول التالية:

الفصل الأول: طبيعة الصراع: ونتعرض فيه لعبارة "**شن الصراع الحاسم**"، حيث سنتناول بالشرح طبيعة وأنواع الصراعات المختلفة، وكيف تتحدد طبيعة الصراع، وكيف تتغير مسارات الفعل والممارسة طبقاً لنوع الصراع.

الفصل الثاني: أطراف الصراع: ونتعرض فيه لعبارة "**على الخصوم المعاندين**"، حيث سنوضح طبيعة الخصوم ودوافعهم، وكيف تختلف طبيعة الصراع باختلاف دوافع الخصوم ودرجة مخاطرتهم في خوض الصراع.

الفصل الثالث: طبيعة القوة السياسية: ونتعرض فيه لعبارة "**التحكم المقصود والمخطط في أدوات القوة السياسية لتحطيم إرادة الخصم**"، حيث سنوضح مفهوم وطبيعة القوة السياسية وأدواتها، وكيفية التأثير في وعي الخصم بموازين القوى.

الفصل الرابع: طبيعة أسلحة حرب اللاعنف: ونشرح فيه "**باستخدام أسلحة لا عنيفة قوية التأثير**"، ولأن هذا الجزء من التعريف أقرب للإجابة على سؤال "كيف؟"، بينما يهتم الكتاب بالإجابة على سؤال "ماذا؟"؛ فإننا سنركز على توضيح فلسفة وطبيعة أسلحة حرب اللاعنف، والفارق بينها وبين أساليب التغيير السلمي الأخرى، ثم نسرد بعض أشكالها.

الفصل الأول: طبيعة الصراع

"**شن الصراع الحاسم** على الخصوم المعاندين من خلال التحكم المقصود والمخطط في أدوات القوة السياسية لتحطيم إرادة الخصم باستخدام أسلحة لاعنيفة قوية التأثير."

المحتويات

1. حتمية الصراع.

2. شن الصراع.

3. تعريف الصراع.

4. أنواع الصراع السياسي.

5. الأضرار الناتجة عن الخطأ في تحديد طبيعة الصراع.

6. من الذي يحدد طبيعة الصراع؟

7. هل يمكن أن يتحول صراع من نوع إلى آخر؟

1. حتمية الصراع

يعتقد البعض أنه يمكن الهروب من الصراع[1]، أو أن الصراع حدث عارض مؤقت على المشهد السياسي والخريطة العالمية، إلا أن تتبع واستقراء المسار التاريخي للبشرية يدلنا على أن الصراع لم يتوقف منذ وجدت البشرية، فهو يمثل جزءاً من الظواهر الناتجة عن الاجتماع البشري. فمنذ أن وجد الإنسان على الأرض تلازمه ثلاث ظواهر:

1. **ظاهرة الاختلاف:** فالناس يختلفون فيما بينهم في نظرتهم للحياة، وفي تحديدهم للحقوق والواجبات، وكيفية توزيع الموارد المختلفة فيما بينهم، وهل يؤسس المجتمع على أساس التعاون أم الصراع، كما يختلفون حول كيفية حل القضايا المختلفة، وكيفية اتخاذ القرارات، ومن له الحق في التعبير عن رأيه، وما هو القدر الذي يمتلكه كل فرد للتأثير في القرارات، وهكذا..

فعلى سبيل المثال الشكل الأمثل للدولة يختلف في الأيديولوجية الليبرالية عن الطرح الذي تطرحه الأيديولوجية الشيوعية وعن الرؤية التي تطرحها الأيديولوجية الإسلامية. وبالمثل

[1] نتحدث هنا عن الجانب الفلسفي حيث لا توجد إمكانية للهروب من الحقيقة الفلسفية التي تقول بوجود الصراع واستمراره، ولا نتحدث هنا على الجانب الاستراتيجي الذي يمكن به تجنب خوض صراع بعينه. فالصراع بين لحق والباطل والخير والشر قائم.

تختلف نظرة الأيديولوجيات الثلاث لمفاهيم الحرية والعدل والتعايش والدستور والمساواة وغيرها من المفاهيم العامة التي تتفق عليها البشرية في معناها العام وتختلف في تعريفها وتفصيلاتها وكيفية تطبيقها في الواقع.

2. **ظاهرة التنوع:** فالناس تتنوع احتياجاتهم وطموحاتهم وآمالهم وأهدافهم، وهذه الاحتياجات تتطلب إشباعاً من الموارد.

3. **ظاهرة الندرة:** يقصد بها الشعور الإنساني العام – الفردي أو الجماعي – بقلة وندرة الموارد الطبيعية والبشرية والمادية وغيرها وعدم مكافأتها لاحتياجاته، سواء على مستوى الضروريات (التي لا تقوم الحياة بدونها)، أو الحاجيات (التي تصعب الحياة بدونها)، أو التحسينيات (التي تصل بالحياة إلى مستوى الرفاه). وتنسحب هذه الفكرة على الفرد والحزب والدولة.

ويعتبر المد الألماني في عهد هتلر شاهد صارخ على إحساسه بضرورة أن تمتد الجغرافيا الألمانية (الموارد) لتغطي احتياجات الجنس الآري.

وهكذا فإن ظواهر الاختلاف (في الأفكار والتصورات والثقافات الخ) والتنوع (في الاحتياجات) والندرة (في الموارد) تؤكد أن ظاهرة التدافع والصراع[1] ميزة وصفة لازمة وحتمية للحالة البشرية.

[1] سنستخدم كلمة التدافع والصراع استخداماً متبادلاً في هذا الكتاب للتدليل على نفس المعنى، وهذا بسبب غنى اللغة العربية بالمصطلحات المختلفة والتي قد لا تتوفر للغات الأجنبية المستخدمة في دراسات اللاعنف.

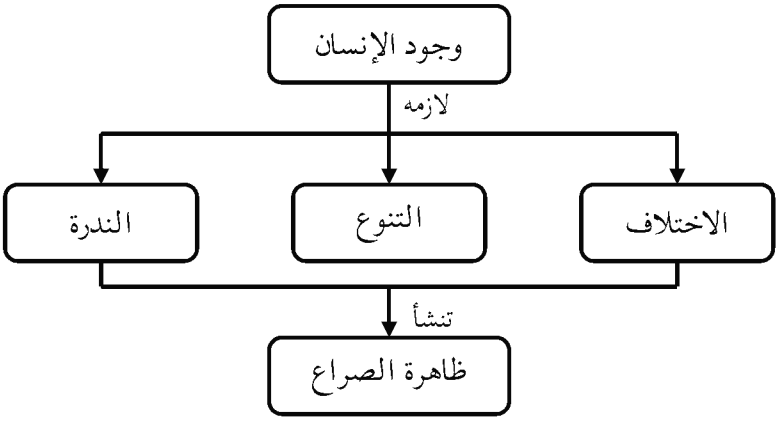

شكل 9: حتمية التدافع والصراع من لوازم الوجود البشري وتنتج عن ظواهر ثلاث: الاختلاف، والتنوع، والندرة

وانطلاقاً من حتمية التدافع أو الصراع – أياً كانت درجة حدته وقوته – فإن القضاء عليه تماماً أو الإبقاء عليه في أعلى معدلاته ومستوياته أمر لا نقول به، أما وجود قدر معتدل منه سواء على مستوى المؤسسات أو الحركات والتنظيمات أو على مستوى الدول والحكومات فيحقق مستوى أعلى من الفعالية إذا تمت إدارته بطريقة صحيحة. فتطور البشرية هو نتاج هذا التصارع بين الأفكار والإرادات والمصالح المتعارضة. وفي هذا يقول روبرت شولر: "إن الصراع هو مكان ولادة الإبداع الأعظم".[1] وإلى هذا يشير القرآن الكريم "... ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين".[2]

2. شن الصراع

بل إن اللاعنف يهدف إلى خلق الصراع، فغياب الصراع ليس هو الحالة المثالية التي تنشدها "حرب اللاعنف"، إنما هي تسعى إلى تزويد الحق بمنطق وأدوات شن الصراع لسحق الباطل، فما معنى غياب الصراع في مجتمع تضيع فيه الحقوق وتصادر الحريات ويعم الظلم؟!

[1] داني كوكس وجون هوفر، القيادة في الأزمات، بيت الأفكار الدولية، الولايات المتحدة الأمريكية، 1998.
[2] سورة البقرة، 251.

إن غياب الصراع في مثل تلك المجتمعات ليس فضيلة وتحضراً، ولكنه جريمة ترتكبها المجتمعات في حق نفسها، حين تترك الباطل يحكم دون أية منغصات.

ولا ينشب الصراع بسبب وجود الباطل فحسب، فوجود الظلم والفساد قد لا يلازمه اندلاع الصراع بين الحق والباطل، خاصة إن لم تتوافر الرغبة أو القدرة لدى أنصار الحق على خوض الصراع.[1] وحين يكون الوضع هكذا (باطل لا يواجه مقاومة)؛ يستقر الباطل ويطور أساليب طغيانه، بينما يدفع أهل الحق تكلفة باهظة جراء سكونهم، فيعاني الحق وأنصاره من اضطراب وعدم استقرار نتيجة السحق المتكرر من قبل الطغاة. حينها تأتي حرب اللاعنف لتؤكد ضرورة شن الصراع لعكس المعادلة، وهي في الحد الأقصى تريد لقيم العدل والحرية أن تنتصر، ولوسائل الصراع السياسي أن تكون حضارية متمدنة، وفي حدها الأدنى تعمل على ألا ينعم الطغاة بالاستقرار، وتكون تكلفة طغيانهم باهظة. ويكفي وجود الباطل مبرراً أخلاقياً للحق كي يشن الصراع لدحض الباطل.

وعندما يتهيب الناس العصيان، أو يتركون الطغاة يعيثون في الأرض فساداً؛ حينها يكون واجب قادة "حرب اللاعنف" إذكاء ميول الجماهير العدوانية[2] كأعداء للظلم، وتزويدهم بأدوات إشعال الصراع والانتصار فيه. وهو صراع مشروع إذ تتوفر المبررات الأخلاقية لشنه،

---

[1] يتطلب شن الصراع "رغبة" و"قدرة"، رغبة جارفة في مصارعة الظلم ومطاردة فلوله، وقدرة على تنفيذ هذه الرغبة وتحويلها إلى ممارسات مثمرة. والرغبة تقتضي الإلمام بموضوع الصراع والمخاطر المترتبة على عدم شنه، وهي مخاطر تمس كل فرد تُرتجى مشاركته في دفع الظلم، والمكاسب المأمولة في حالة خوضه، وهي كذلك مكاسب تمس كل فرد تُرتجى مشاركته.

أما القدرة فهي ترجمان الرغبة في عالم الواقع، ويمكن القول بأن الرغبة هي الهتاف الذي تنطق به الأفواج المحتشدة لصرع الظلم، والقدرة هي الأسلحة الحضارية الفعالة التي تتزين بها أيادي تلك الحشود.

[2] يصف جان ماري مولر العدوانية في كتابه معنى اللاعنف بأنها قوة نضالية، بها يؤكد المرء ذاته، وبدونها يكون عاجزاً عن الاضطلاع بالنزاع الذي يضعه في مواجهة الآخر، وبدونها يظل الإنسان في حالة هروب دائم أمام تهديدات الآخر، ويرى علماء النفس أن العدوانية هي التي تلازم الطبيعة البشرية وليس العنف، كما أن العدوانية ليس من المحتم أن تعبر عن نفسها بالعنف.

واستشهد مولر بتجربة مارتن لوثر كينج في نضاله من أجل حقوق السود، حيث كان عمله مرتكز على إيقاظ عدوانية هذا الشعب الذي استسلم طويلاً لمصير كشعب مستعبَد، فخلق مارتن لوثر نزاعاً بين السود والبيض بعد أن أيقظ عدوانية شعبه. (جان ماري مولر، معنى اللاعنف، مركز اللاعنف وحقوق الإنسان – جمعية العمل الاجتماعي الثقافي، بيروت، 1995، ط1، ص16-17.

والوسائل الحضارية لخوضه. بل ينتج جراء غياب الوعي بضرورة إشعال الصراع استتباب واستقرار الظلم، لذلك عندما نقول في تعريف "حرب اللاعنف" إنها "شن **الصراع** الحاسم على الخصوم"؛ فهذا يعني تركيب أنياب ومخالب للمجتمعات بحيث لا ترضخ للظلم، وتتمكن من إشعال صراع ينتصر للإنسان والقيم النبيلة، ويُكَدِّر صفو الظالمين، وينزع بساط الاستقرار من تحت أقدامهم.

وهو صراع حاسم لأنه لا يدخل في تسوية مع الظلم، أو صفقة مع الديكتاتوريات، إنه يطيح بها دون رجعة.

ويراعى في شن الصراع أمران:

عدالة القضية: وإلا تحول الأمر إلى إفساد في الأرض وتحريض على الباطل.

رقي الوسائل: حتى لا يتحول الأمر إلى أحداث شغب. يسئم الناس منها بعد فترة ويتمنون لو عادوا إلى ما كانوا عليه من وضع سابق رغم مرارة الظلم فيه.

3. تعريف الصراع

يمكن تعريف الصراع بأنه "التنافس بين القوى المتضادة والمتعارضة بما يعكس مدى التنوع والاختلاف والإحساس بالندرة".

وهنا لابد أن ندرك أن ديناميكية الصراع تقوم على عدة عوامل:

الأول: مدى حدة الظواهر الثلاث (الاختلاف والتنوع والندرة): فكلما ازدادت حدة الاختلافات بين الجماعات البشرية، وزادت الحاجة، وتفشى الإحساس بالندرة؛ كلما زادت حدة الصراع، وكلما قلت حدة الظواهر الثلاث؛ قلت حدة الصراع.

الثـاني: طبيعــة الخصــوم: وتشـمل دوافـع أطـراف الصـراع والبنيـة الأيديولوجيـة والاجتماعيـة والاقتصادية والسياسية لكل طرف، وهذه الطبيعة هي التي تحدد أسلوب التعامل مع الصراع، إما عبر إبداع الحلول الحضارية المناسبة مما يجعله صراعاً لاعنيفاً، أو عبر استخدام القوة المادية الصلبة مما يجعله صراعاً عنيفاً أو مسلحاً.

الثالث: ظهور وسائل جديدة: تكسر الجمود وتزيد الصراع اشتعالاً.

الرابـع: اضـطراب المعادلـة الاسـتراتيجية: التـي يـدور الصـراع السياسـي فـي فلكها مثل وفاة أحد الزعماء أو حدوث أزمة عالمية أو إقليمية تلقي بظلالها على ثبات الأوضاع الاستراتيجية بين طرفي الصراع وتحدث حالة من الخلخلة الاستراتيجية التي تغري أحد طرفي الصراع أو كليهما بمحاولة الولوج من خلالها لتحقيق مكاسب صلبة.

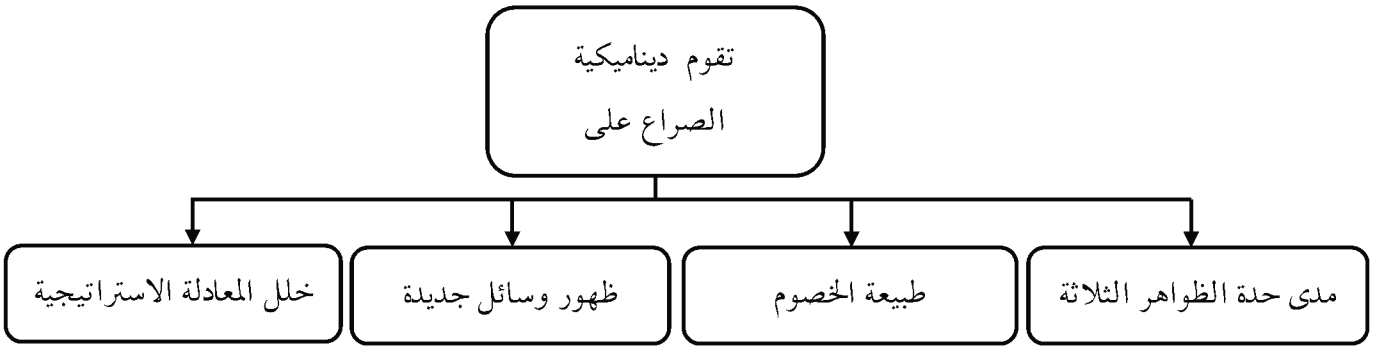

شكل 10: ديناميكية الصراع تعتمد على درجة الاختلاف والتنوع والندرة، وطبيعة الخصوم المختلفين،تشكل وسائل تكتيكات جديدة تكسر الجمود، وتغير الأوضاع الاستراتيجية

4. أنواع الصراع السياسي

ينقسم الصراع السياسي إلى ثلاثة أنواع رئيسة:

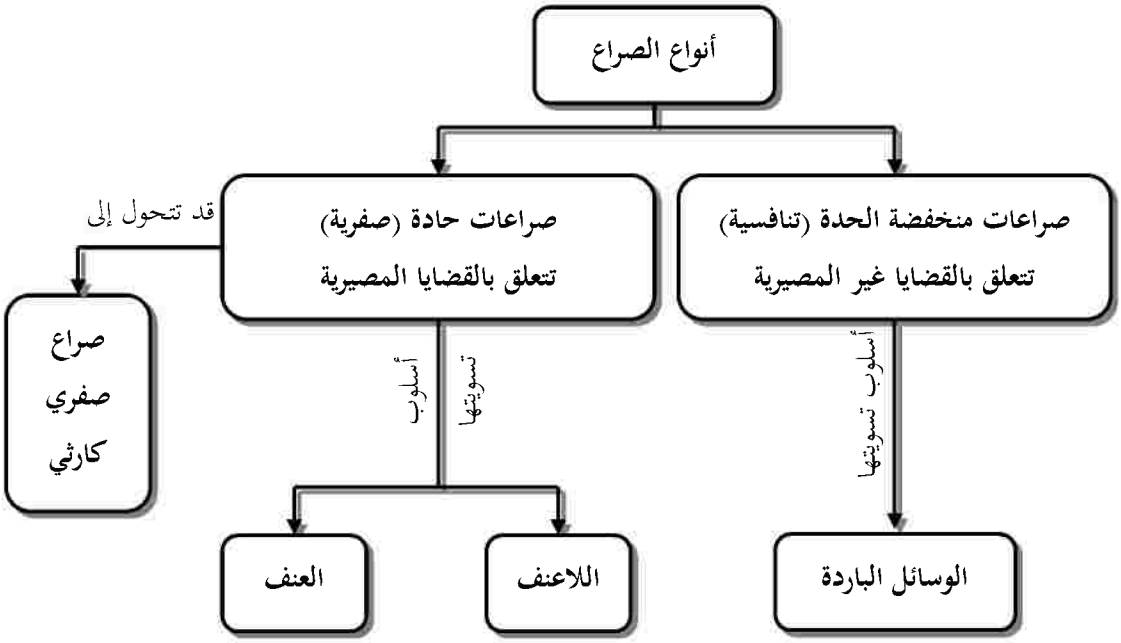

شكل 11: أنواع الصراع السياسي والوسائل المناسبة لتسويتها

الأول: صراع منخفض الحدة (تنافسي): حيث تكون القضايا التي يقوم عليها الصراع غير مصيرية بالنسبة لأطرافه المختلفة، وهي تلك القضايا التي يمكن التفاوض والحوار حولها، مثل القضايا المتعلقة بتغيير بعض القوانين، أو زيادة الأجور والامتيازات المخصصة لجماعة ما، أو الدفاع عن البيئة أو قضايا نزع السلاح، أو الدفاع عن اللاجئين، وغيرها من القضايا التي لا تمثل تهديداً لوجود[1] طرفي الصراع. وهذا النوع من الصراع يتم حسمه باستخدام الوسائل الباردة كالتفاوض والحوار وغيرها.

[1] هناك ثلاث مراحل تمر بها أي مؤسسة:

المرحلة الأولى: مرحلة الوجود. فكل كائن حي أو نظام قائم يحرص أولاً على بقائه أو وجوده.

المرحلة الثانية: مرحلة الاستقرار. فهذا الكيان الذي ضمن وجوده وبقاءه في المرحلة الأولى يسعى بعد ذلك إلى الاستقرار. فتأمين الوجود والبقاء قد لا يعني استقرار النظام. لذا فهو يسعى إلى تعديل أوضاعه لإيجاد حالة من الاستقرار.

وتبعاً لنظرية أرنولد توينبي المتعلقة بالتحدي والاستجابة[1] فإن هذا النوع من الصراع إيجابي، إذ أنه يفجر طاقات الإبداع، فصراع الأفكار والرؤى والتجارب المنضبط هو الذي ينتج مجتمعاً نابضاً بالحياة والحركة والإنتاج.

الثاني: صراع مرتفع الحدة (صفري): حيث تكون القضايا المصيرية على المحك، وهي تلك القضايا التي تهدد وجود أو استقرار أحد طرفي الصراع، مثل قضايا الاحتلال والاستبداد حين لا يقبل أي طرف أن يتخلى عن أجندته، ويُحسم هذا النوع من الصراع من خلال التدافع بين الحركات الوطنية والأنظمة الحاكمة، وهو ما يحدث في الدول التي تحكمها أنظمة ديكتاتورية، وغالبًا ما ينتهي بالقضاء على أحد الطرفين. وهو التدافع الذي غالباً ما يتميز بالعنف لكونه الأداة الوحيدة التي كان يعتقد بفاعليتها وجدواها. وقد أثبتت التجارب التاريخية التي سردناها من قبل بأن مثل هذه الصراعات يمكن تسويتها عن طريق حرب اللاعنف.

ورغم أن هذا التقسيم لأنواع الصراع اعتمد على نوع القضايا التي يتناولها إلا أنه يمكن القول بأن هناك عاملاً آخر يؤثر على طبيعة الصراع؛ يتجسد في مدى توافر آليات مؤسساتية منظمة ومقننة ومعروفة لحسمه.

المرحلة الثالثة: مرحلة التنمية. وفيها يهدف الكيان – بعد المرحلتين السابقتين – إلى مستوى ثالث، ألا وهو النمو وتطوير ذاته والبناء.
وهكذا فإن أي نظام يسعى إلى الوجود، ثم إلى الاستقرار، ثم إلى التنمية.
والقضايا غير المصيرية عادةً ما تتعرض للمستوى الثالث – التنمية – ولا تتعرض للمستويين الأول والثاني، فأكثر هذه القضايا يكون متعلقاً برؤية الخصوم لكيفية وطريقة التنمية.

[1] للاطلاع على نظرية التحدي والاستجابة يمكن الرجوع إلى كتاب نحو وعي استراتيجي بالتاريخ "الذاكرة التاريخية" للدكتور جاسم سلطان، الطبعة الأولى، مؤسسة أم القرى للترجمة والنشر والتوزيع، صفحة 16.

فعلى سبيل المثال يمكن تصنيف الكثير من الخلافات الحدودية بين الدول على أنها صراع منخفض الحدة، رغم أهمية القضية محل النزاع، ذلك أن وجود آلية مقبولة ومتعارف عليها لفض مثل هذه النزاعات على المستوى الدولي يحول دون تحولها إلى صراع صفري، وبالمثل فإن الذي يحول دون تحول التنافس الحزبي الشديد بين الأحزاب – المختلفة فكرياً وأيديولوجياً وعقائدياً – في المنظومة الديمقراطية إلى صراع صفري هو وجود آليات التنافس والتداول السلمي للسلطة.

ومن هذه الآليات: الدساتير والقوانين، ونظام التحاكم الأسري والعشائري، والأحكام الدينية، والأعراف والتقاليد، والحوار والمؤتمرات. وتتراوح هذه الآليات بين كونها رسمية ومدونة مثل الانتخابات وما يعطيه الدستور من حقوق للأفراد والجماعات من وسائل للتعبير والمطالبة بالحقوق العامة والخاصة. أو متعارفاً عليها وكامنة في العقل الاجتماعي والفردي. وتسمى هذه الضوابط مجتمعة "**نطاقات السلام**"،[1] فتمنع تلك التناقضات من أن تتحول إلى صراع صفري عنيف ومدمر.

وعند غياب مثل هذه الآليات المنظمة لفض الصراع كما في حالات الديكتاتوريات والاحتلال التي تعتمد القوة المادية– العسكر – كآلية لفرض إرادتها والحفاظ على مصالحها؛ فإن الصراع يتحول إلى صراع صفري، وفي بعض الحالات يبلغ الصراع من الحدة بين الطرفين ما يمكن أن نطلق عليه "الصراع الصفري الكارثي".

الثالث: الصراع الصفري الكارثي: وهو الصراع الذي ينتهي بالقضاء على طرفي الصراع، حيث تتفكك بنى ومؤسسات الدولة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وتسود الفوضى العامة التي لا

[1] نطاقات السلام هي الآليات والضوابط التي تضمن بقاء الصراع والتدافع بين الأفكار المتعارضة في النطاق الحضاري البَنَّاء الذي يسهم في تطوير المجتمع، فهي تمثل أحزمة الأمان التي تَحُول دون تَحَوُّل الصراع إلى النطاق السلبي الهدام.

تستطيع معها الحركة المقاومة فرض سيطرتها أو نفوذها على أرجاء الدولة. وكثيراً ما ينتج هذا النوع من الصراع عن تدخل قوة ثالثة تدمر طرفي الصراع عسكرياً أو معنوياً أو اقتصادياً.

وتمثل الحالة العراقية نموذجاً صارخاً لهذا الصراع الصفري الكارثي، حيث لجأت المعارضة إلى القوى الخارجية الأمريكية لتدمير قوة النظام، ولكنها عجزت عن التعامل مع القوى الخارجية وفرض سيطرتها على الدولة. فكلاً من طرفي الصراع – النظام والمعارضة – خرج من هذه المعركة مهزوماً، حيث فَككت القوى الخارجية ودَمرت بنى الدولة تماماً، بينما دمرت المعارضة – التي استعانت بالأمريكان– إعلامياً وخسرت تأييد الجماهير، ففقدت مصداقيتها، وبالتالي عجزت عن فرض سيطرتها على الدولة أو فرض إرادتها على القوى الخارجية لافتقادها العمق الجماهيري.

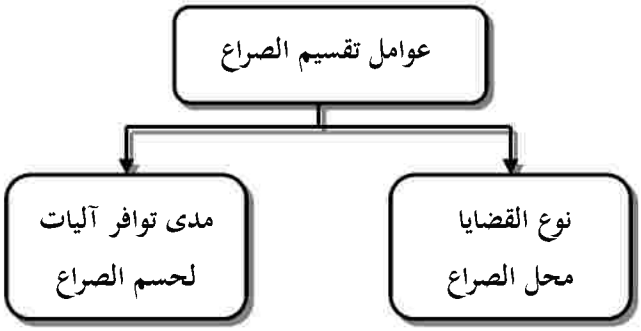

شكل 12: عوامل تقسيم الصراع، حسب نوع قضايا الصراع وتوفر آليات التعامل معها

5. الأضرار الناتجة عن الخطأ في تحديد طبيعة الصراع

كثيراً ما تتعامل حركات المقاومة مع الصراع بقدر كبير من حسن النية، فيعلن قادتها أن الصراع بينهم وبين خصومهم هو صراع تنافسي، وليس صفرياً، ويقصدون بذلك في كثير من الأحيان إظهار حسن النوايا للخصم، إلا أن أضرار هذا الاعتقاد أو الإعلان تتمثل في التالي:

1. **خلل على مستوى النتائج**، حيث يفقد أعضاء حركة المقاومة حس الصراع نتيجة غياب أو ضعف الباعث الشعوري المحفز، حيث إن شعور أفراد المقاومة بحدة الصراع يجعلهم مستنفرين لأقصى درجة ممكنة، وكلما قل الشعور بحدة الصراع؛ زاد استرخاء أفراد المقاومة، مما يجعل الحركة تتحول إلى ما يشبه النادي الاجتماعي أو المؤسسة الخيرية التربوية الاجتماعية، وهو ما يمكن اعتباره خللاً على مستوى النتائج.

   وبشكل تلقائي يؤدي هذا الخلل إلى تحويل بعض حركات المعارضة والمقاومة – ذات البرنامج السياسي والأيديولوجي أساساً – إلى مؤسسات اجتماعية وثقافية وتربوية، وقد يؤدي بهذه الحركات إلى خفض سقف أهدافها، أوتغيير الأهداف بالكلية في بعض الحالات.

2. **عدم القدرة على الحشد الجماهيري**، وافتقاد مناصرة الجماهير الواسعة، فعموم الجماهير لا تتبع الخطاب الدبلوماسي، ولا تتبع خطاب الضعفاء؛ ولكنها تتبع الخطاب الحاد القوي الذي يبيع لها الأمل، ويشعرها ببريق الفكرة، ويبشرها بإمكانية الفعل، وبقدرة الحركة على الانتصار.

وهذا الخلل نلحظه واضحاً عندما نقارن خطاب وأداء حركة قادرة على حشد الجماهير وبين أداء حركات أخرى زهدت في الجماهير واتخذت لنفسها أعذاراً ولا تفتر عن النيل من الجماهير، فترى قعود الجماهير عن مناصرتها دلالة تخلفاً وسلبية من الجماهير، وليس فشلاً في قدرتها على الحشد واختيار الخطاب المناسب.

3. **فقدان الاتجاه**، فالتعامل مع الصراع التنافسي يختلف تماماً عن التعامل مع الصراع الصفري. ومن ثم فإن الخطأ في تحديد طبيعة الصراع هو خطأ على مستوى الفكرة (خطأ قاتل)، تنتج عنه تلقائياً أخطاء على مستويات السياسات والاستراتيجيات والتكتيكات والتنفيذ، مما يؤدي بالحركة إلى السير في الاتجاه الخاطئ أو الدوران حول نفسها.

وتحدث نفس هذه الأضرار في حالة الاعتقاد بصفرية الصراع التنافسي، فيؤدي إلى خلل على مستوى النتائج نتيجة الإحساس العالي بصراع صفري غير موجود أصلاً، مما يؤدي إلى تحول الحركة إلى مؤسسة غريبة في المجتمع، وهو ما يفقدها مناصرة الجماهير الواسعة لاستهجانها خطاب الحركة، كما أنها تفقد الاتجاه لوجود هذا الخطأ على مستوى الفكرة، فتتحرك في الاتجاه الخطأ.

ونلحظ هذا الاضطراب واضحاً في حالة الأحزاب النازية المعاصرة في الغرب، حيث تستهجن الجماهير خطابها، وتشبه رموز تلك الأحزاب – بالقول أو بالرسم – برموز النازية والفاشية التي نشرت الحروب والخراب والدمار في أنحاء أوروبا قبيل منتصف القرن العشرين.

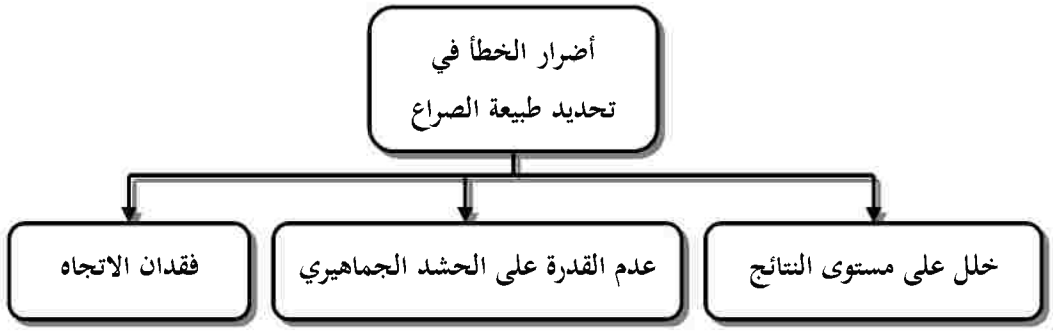

شكل 13: أضرار الخطأ في تحديد طبيعة الصراع مما يؤدي إلى خلل في النتائج، وقعود الجماهير، واضطراب الأنشطة

6. من الذي يحدد طبيعة الصراع السياسي؟

وهنا يتبادر سؤال، من الذي يحدد طبيعة الصراع السياسي؟ وماذا لو رآه أحد الأطراف تنافسياً، ورآه الآخر صفرياً؟

والواقع أن طبيعة الصراع تتحدد بناء على عاملين:

الأول: **كيفية رؤية كافة أطراف الصراع له.** فالصراع يقوم بين طرفين أو أكثر حول قضية ما، وبالتالي فمعتقدات وتصورات وأهداف ومصالح وسياسات أطراف الصراع المختلفة حول هذه القضية تؤثر بوضوح في تحديد طبيعة الصراع.

الثاني: **ميزان القوى بين أطراف الصراع.** ففي حالة توازن القوى بين أطراف الصراع المختلفة تتحدد طبيعة الصراع بناء على رؤية الأطراف المختلفة، وفي حالة رجحان كفة ميزان القوى لصالح أحد الأطراف تصبح رؤيته للصراع هي التي تحدد طبيعته، وعلى بقية الأطراف أن تتعامل معه بمنطق الطرف الأقوى.

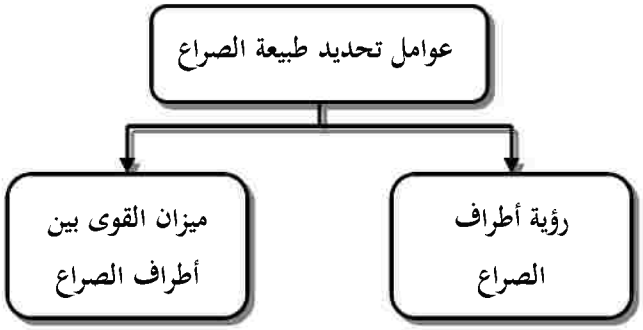

شكل 14: عوامل تحديد طبيعة الصراع تنافسي أو صفري حسب رؤية الأطراف وميزان القوى بينهم

فعلى سبيل المثال قد تقرر حركة المقاومة أن صراعها ضد خصومها هو صراع تنافسي، بينما خصومها يرونه صراعاً صفرياً، فكيف تتحدد طبيعة الصراع؟

إن طبيعة الصراع تتحدد في ضوء العاملين السابقين، فلو كان الخصم يرى الصراع صفرياً ويميل ميزان القوة لصالحه فإن رؤيته للصراع هي التي تصوغه وترسم شكله ومساره، وفي حالة اعتقاد المقاومة بأن الصراع تنافسياً ويميل ميزان القوى لصالحها فإن رؤيتها للصراع هي التي تصوغه وترسم شكله ومساره.

فتحديد طبيعة الصراع لا تخضع للرغبات والأماني والأحلام؛ وإنما للمعطيات السياسية على أرض الواقع وموازين القوى بين الأطراف المختلفة، فهو قرار متبادل بين كافة الأطراف.

7. هل يمكن أن يتحول الصراع من نوع إلى آخر أثناء حدوثه بين الأطراف؟

يمكن للصراع أن يتحول من الصفري إلى التنافسي أو العكس إذا ما قيد أحد الأطراف نفسه طواعية للطرف الثاني، حيث تتغير قناعات الخصم بطبيعة الصراع، وهو ما قد يحدث نتيجة قدرة أحد الأطراف على التأثير في وعي الطرف الآخر بموازين القوى، أو نتيجة ضغوط وعوامل خارجية، فيقيد الخصم نفسه ويقدم تنازلات.

الخلاصات العملية

- اكتساب المهارات المتعلقة بإدارة الصراع، وإسقاط إمكانية الفرار منه من حساباتها، فإن الفرار يعني الاستسلام للخصوم.
- تزويد الجماهير بالرغبة والقدرة على شن الصراع.
- التأكد من عدالة القضية وأنها في مصلحة المجتمع ككل.
- الاهتمام بمخاطبة الناس ورفع درجة حساسيتها تجاه الظلم والأوضاع الخاطئة، من خلال:
- التلطف في خطاب الجماهير.
- القيام بأعمال تحرك مشاعر وفكر الجمهور.
- اختيار الخطاب والوسائل المناسبة لكل شريحة
- إظهار أخلاقية العمل المقاوم سواء من حيث عدالة القضية أو الوسيلة المستخدمة.
- تقديم البطولات التي تثير التساؤل لدى الجماهير الصامتة. فكل تضحية تساهم في خلق هذا الحوار مع الجماهير، لذلك لا يتهيب المقاوم اللاعنيف من آثار القمع (المحدود)، فلا ينشغل كثيراً بكيفية الرد عليه، بقدر ما ينشغل بكيفية إقناع الجماهير بفداحة الظلم الواقع، ويدعوها كي تقف معه وهو يواجه ببسالة.
- التحديد الدقيق لمدى حدة الاختلافات بينها وبين خصومها.
- التحديد الدقيق لطبيعة خصومها حتى لا تدور في دائرة من الأوهام والظنون.
- تحديد طبيعة الصراع بدقة بعيداً عن الأحلام والأماني.
- تحديد نوع الصراع من منظور فريقك أو مجموعتك.

- تحديد نوع الصراع من منظور خصمك.
- بناء على رؤية كل طرف، وموازين القوى حدد طبيعة الصراع
- تحديد المسار العام لخوض الصراع (نضال دستوري – حرب اللاعنف – الخ).